الصنهاجية في موريتانيا.. طغيان الطوبونيميا وانحسار الاستخدام.

مشاركة في ندوة عن واقع الأمازيغية في شمال إفريقيا.. تطوان 12 يناير 2019

تقديم: بابا ولد حرمة

لقد كان بودي أن يكون هذا الحديث بـ"آوج ان يزنكنْ" ذات الجرس الجميل الرنان.. وأن يكون حديثي عن الأمازيغية في موريتانيا بالأمازيغية، وأن يبوح صنهاجة الصحراء لـ"صنهاجة السراير" بلغة صنهاجة.. ووددت أكثر لو كنت وفيا للتعاليم والتقاليد الصنهاجية، وبينكم من هم أكبر مني سنا، فخاطبتكم بلغة لم يكن الأجداد يقبلون أن يحدِّث الصغيرُ الكبيرَ بغيرها، ويرون في ذاك سوء أدب، ويقولون لفاعله: "شوشو ورمغ" اتفل ريقك، أي تطهر من خطيئتك.

وكان هذا الحديث، لو قدر له أن يجريَ بـ"آوجْ ان يزْنكنْ"، ليكون أكثر ودية وحميمية.. فهي لغة الدفء والود والعائلة.. إنها لغة، كما تقول عمتي، لا يقول المتحدث بها إلا خيرا، ولا يرتفع الحديث بها لغطا.. لكن الوسط الثقافي الطارد للتعدديةِ اللغوية والتنوعِ الثقافي، واللحظةَ التاريخية غير الرحيمة باللغة الصنهاجية التي اكتنفت نشأتي وسبقتها، حرمتني للأسف الشديد من هذا الامتياز، وكادت حتى وقت قريب أن تقطع علاقتي بلغة ظل الأجداد في أقصى جنوب غربي موريتانيا يعضون عليها بالنواجذ بعد ما تخلى عنها معظم صنهاجة الصحراء في إطار ما سماه الباحث القدير عبد الودود ولد الشيخ بـ"قتل الأم،"[1] تعبيرا عن مسار التعرُّب والانسلاخ من الهوية الصنهاجية بنظامها الأميسي ولسانها الذي لم يبق من المتحدثين به الآن سوى بضعة آلاف، أو ربما أقل من ذلك في منطقة الكبلة ينتمون إلى ثلاث قبائل هي إدابلحسن وتندغة وأولاد ديمان.

منطقة الكبلة.. رباط صنهاجة الأخير في الصحراء

[1] Abdelwedoud Ould Cheikh (1985). Nomadism, Islam, et Pouvoir dans la Société Maure Precolonial (XIème Siècle -XIXème Siècle): Essai sur quelques Aspects du Tribalism, Tome I, pp. 197-215.

عادة ما يربط الدارسون والباحثون من ذوي التفسيرات الحتمية والتبسيطية[2] للتاريخ بين الهزيمة الثقيلة التي مُـني بها التحالف ذو الأغلبية الصنهاجية في حرب شربة[3] وبين بدء انحسار اللغة الصنهاجية في موريتانيا. غير أن إعادة النظر بصورة أشمل إلى خريطة الصراع الذي احتدم بين القبائل العربية والكونفدراليات الصنهاجية التي كانت تنتشر في غرب الصحراء (ابدوكل، انييرزيغ، إدوعيش، الأنباط..)، والنتائج المتباينة التي كانت لهذا الصراعات والحروب في مختلف المناطق، قد تقودنا إلى استخلاص نتائج مغايرة، وتجعلنا نتساءل ما إذا كانت هزيمة شربة قد أطالت، إلى جانب عوامل أخرى ثقافية وإيكولوجية واقتصادية، عمر الصنهاجية في منطقة الكبلة.

لقد كانت حرب أولاد الناصر (حسَّـان) ضد ابدوكل التي انتهت بسحق هذا التجمع الصنهاجي، ودشنت سيطرة الناطقين بالحسَّـانية في الصحراء الموريتانية، انقلابا داخليا أمال تحالف كنتة فيه مع حسِّـان كفة الصراع ضد أخوالهم ابدوكل وفق الرواية الكنتية، أو ذويهم، إن نحن اعتمدنا الانتماء الصنهاجي الأميسي الذي نفترض أنه كان طاغيا في غرب الصحراء خلال القرن الخامس عشر. ولهذا فإن هذا الصراع، ربما، لم يحمل معنى المواجهة الحقيقية بين صنهاجة والعرب بقدر ما كان صراعا داخليا بين ابدوكل أنفسهم، ضمن عملية تخلصٍ من الأصول الصنهاجية واندماجٍ عروبي مبكر[4]. وقد أفرزت المواجهة التي دارت رحاها لاحقا في تَغانِـتْ عن قيام إمارة صنهاجية على أيدي إدَوعِيشْ بعد فشل حصار احنيكات بغدادة سنة 1778[5]. كما استطاعت قبيلة إديشلي[6] الصنهاجية في آدرار، رغم انضوائها تحت إمارة أولاد احيى من عثمان المغفرية، أن تحافظ على شوكتها العسكرية متحالفة مع الحكام الجدد لآدرار ضد أبناء عمومتهم

---

[2] Taylor, R. (2002). L'Émirat Précolonial et l'Histoire Contemporaine en Mauritanie. (de Beauvais, C. Trans.). *Annuaire de l'Afrique du Nord*, Vol. 37, pp. 53-69.

[3] تطلق "حرب شربة" على الصراع الذي دار بين تحالف صنهاجي بقيادة الإمام ناصر الدين وتجمع قبائل حسان بقيادة هدي ولد أحمد من دامان سبعينيات القرن السابع عشر، غير أن المؤرخ حماه الله ولد السالم يرى أنها أطلقت أول ما أطلقت على الحرب التي دارت رحاها بين ابدوكل من جهة وأولاد الناصر المتحالفين مع سيد امحمد الكنتي من جهة أخرى في عشرينيات وثلاثينيات القرن الخامس عشر. انظر: ولد السالم (2010)، تاريخ بلاد شنكيطي (موريتانيا). بيروت: دار الكتب العلمية. صفحات: 167-170.

[4] Whitcomb, T. (1975). New Evidence on the Origins of the Kunta. *Bulletins of the School of Oriental and African Studies*. Vol. 31, N. 1, pp. 103-123. Ould Cheikh, op. cit., p. 198.

[5] حماه الله ولد السالم، مرجع سبق ذكره ص. 318

[6] Bonte, P. (2014). Récits d'Origine: Contribution à la Connaissance du Passé Ouest-saharien, Mauritanie, Maroc, Sahara occidental, Algérie et Mali. Paris: Éditions Karthala.

من أولاد امبارك وغيرهم. وقد صعدت قوة صنهاجية أخرى، معيدة إنتاج الأنموذج الإدوعيشي، منتصف القرن التاسع عشر هي مشظوف[7] وأرست سيطرتها العسكرية والسياسية في الحوض.

لقد نجحت القبائل الثلاث الأخيرة وغيرها من القبائل الصنهاجية المنتشرة في وسط وشمال وشرق موريتانيا، بدرجات متفاوتة، وفي مراحل زمنية مختلفة، في تأكيد استقلالها السياسي والعسكري. وربما لهذا، ولأسباب أخرى، لم تعد في حاجة إلى تأكيد تمايزها اللغوي أو الثقافي عن القبائل الحسانية. فبعد أن رفعتهم قوتهم العسكرية وأصبحوا وظيفيا وتراتبيا قبيلة من لعْرب بالمعنى الوظيفي، لم يجد إدوعيش غضاضة ولم يروا حرجا في أن يوصفوا بزْناغَـة، بل باتوا ينظرون لهذا الوصف بكل فخر واعتزاز وأصبح معتمدا في مدائحهم من طرف إيغاونْ رغم ما كان له من حمولة قدحية في فضاءات أخرى نجح فيها التوغل المعقلي، ووجه داخلها ضربات قاتلة للوجود الصنهاجي.

أما في منطقة الكبلة، فقد اختلف الوضع تماما. لقد أودت هزيمة شربة بالتحالف ذي الأغلبية الصنهاجية الذي قاده الإمام ناصر الدين، وحُـرم هذا التحالف بموجب اتفاقية إنهاء الحرب من حمل السلاح مجددا وحتى من امتلاك الإبل، ضمن شروط أخرى مجحفة قضت على أي طموحات عسكرية قد تتولد في المستقبل.[8] وقد اضطُـرت هذه القبائل المهزومة إلى إعادة تشكيل أنسابها وفك الارتباطات الأميسية التي كانت تربط بعضهها بالبعض الآخر. ومن فك الارتباط هذا بين تشمشة، وأخوالهم/ ذويهم مدلش، نشأ ما سيعرف لاحقا بالتحالف الخماسي، وفق ما يؤكد بيير بونت[9].. وقد استنفرت المجموعات الصنهاجية بعيد شربة، كما تؤكد كتابات اليدالي وأشعاره، كل ما كانت تمتلك من أدوات ثقافية وروحية، وابتكرت وسائل وآليات خاصة بها في

---

[7] ولد السالم. مرجع سبق ذكره. ص. 323

[8] شملت تلك الشروط ما يعرف بـ"وصَّلْ" و"تِلْتْ المَ" و"الضيافة لثلاثة أيام. للمزيد عن الضرائب العرفية في النظام الأميري الحساني، انظر: Ould as-Saʿd. M.(1990). Émirats et Espace Émiral maure. Le Cas du Trārza aux XVIIIe-XIXe Siècles. In *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, 54: pp. 53-82.

[9] Bonte, P. (2014). Récits d'Origine: Contribution à la Connaissance du Passé Ouest-saharien, Mauritanie, Maroc, Sahara occidental, Algérie et Mali. Paris: Éditions Karthala.

مساعيها من أجل الانعتاق والتحرر الفكري والنفسي من السيطرة الحسانية، والبقاء خارج دائرة التهميش والإخضاع الاجتماعي (اتزنغي).[10]

ورغم ما قد يثيره الأمر من إشكاليات، وما قد يبدو فيه من تناقض، فإنه لا يمكن تفسير الحفاظ على اللغة الصنهاجية والتحدث بها حتى الآن في الكبلة خارج إطار الصراع المحتدم على التراتبية الذي استخدمت فيه وسائل أخرى استخدمت خارجه، من بينها إعادةُ تشكيل الأنساب وربطها بكبار الصحابة والفاتحين، وكتابةُ التاريخ وفق احتياجات الحاضر. وقد كان سلوك النخب الشمشوية، التي شكلت العمود الفقري لحركة التوبة التي تزعمها ناصر الدين، ملتبسا ومضطربا، وبدت مواقفها متذبذبة بين البقاء على حافة هوية صنهاجية أصبحت مطابقة للإخضاع والتشبث بها كنوع من الرفض والمقاومة والمغايرة، وبين سلوك مسار التعرب والانتساب إلى أصول عربية، في بحثها عن آفاق للخلاص الاجتماعي والسياسي بعد هزيمة شربة.

لقد جربت هذه النخب استراتيجيات مختلفةً، بل ومتناقضة، في علاقاتها مع القادة الجدد لمنطقة الكبلة بدايات القرن الثامن عشر، وتأرجح موقفها بين التقرب منها وبين محاولة المقاومة والانطواء والهروب منها. وقد بدا هذا واضحا حتى أثناء حرب شربة نفسها. ويجسد الشيخ محمد اليدالي هذا الموقف بكل وضوح. فرغم الموقف الحازم الذي أبداه في كتاباته من ضرورة الابتعاد عن من سماهم الظَّـلَـمة، مع إبقائه الباب مفتوحا أمام الخاصة ولضرورة المصلحة، فقد ضجت أشعاره بمدح الأمراء والقبائل المغفرية، وبالفخر بالعلاقة التي تربط قبيلته (أولاد ديمان) ببيوتات الإمارة في البراكنة والترازة. ويبدو أن هذا الموقف غيرَ الحاسم مما ينبغي فعله تجاه الوضعية الحرجة التي وجد فيها أتباع ناصر الدين أنفسهم لم ينسحب فحسب على الموقف من الهوية

[10] عن "أسلحة الضعفاء" التي استخدمها زوايا الكبلة في مساعيهم لتخفيف أعباء السيطرة الحسانية بعد هزيمة شربة يمكن العودة إلى: Ould Horma, (2018). Negotiating Subalternity in the Desert: Socio-cultural Forms of Emancipation in Precolonial Southwestern Mauritania, *Gibla*. (Unpublished Master Thesis). University of Dakar.

الصنهاجية،[11] التي احتفظوا منها، للمفارقة، باللسان وتخلصوا من أصولها الجينيالوجية،[12] فحسب بل انعكس في رؤيتهم الشاملة للكون (weltanschauung).

ويجسد ما يسمى الديْمين، الذي يرتكز على قيم "الصبر والأناة واللامبالاة والسخرية ورهافة الحس،" ويشكل في جانبه الخطابي "أسلوبَ تعبير مؤسسٍ على الغموض" و"تجريدا للكلام من حدته" و"لعبا على كل الأوتار التي من شأنها أن تحرر النفوس من سجن وجمود الدلالة المباشرة للكلمات،"[13] هذا الموقف، ويعبر عن تلك الروح التي تنزع نحو الغموض وتشييد بنى وعوالمَ خاصة تفترض، غرورا منها ربما، أن الآخر، الذي يطلق عليه "إتِـغِّي"، لا يمكنه ولوجها.

لقد كان الحديث بكلام زناغَـة يلبي، من دون شك، هذه الرغبة الجامحة في تحصين الذات وحمايتها، حتى من فهم الآخرين لنواياها ومقاصدها، ويساهم في رسم حدود فاصلة بينها وبين القبائل المحاربة، وبينها خاصة وبين القبائل الغارمة التي أخضعتها النخبة العسكرية المغفرية وفرضت عليها إتاوات، وهو ما تعكسه بجلاء المقولة المتداولة التي تقول، للمفارقة، إن "البيظاني الذي يتحدث كلامْ زْناغَـة لا يمكن أن يكون زناغِيا،"[14] أي تابعا غارما. وهي مقولة لا شك أنها صيغت في مراحل متقدمة من انحسار استخدام هذه اللغة داخل المجموعات ذات الأصول الصنهاجية، وبعد أن تمايزت الطبقات الثلاث (لِـعْربْ/ حملة السلاح، والزوايا/ المشتغلون بالعلم، وزْناغَـة/ مربو الإبل الغارمين) التي ترجع المرويات الشفهية ذات النزعة التبسيطية للتاريخ الموريتاني نشأتَـها إلى دولة المرابطين[15]. وتشهد هذه المقولة كذلك على لحظة من الوعي بأهمية العامل اللغوي في التمايز الاجتماعي، ومن الاعتزاز بهذه اللغة واستخدامها أداة ووسيلة من وسائل الانعتاق السياسي.

---

[11] لقد لاحظ نوريس أن تشمشة ، رغم اعترافهم دون أي شعور منهم بالنقص، بأنهم ذوو أصول صنهاجية، وبما تحمله أسماء أجدادهم (مهنض امغر، يداج.. إلخ) من جرس أمازيغي لا لبس فيه، اضطُروا مثل بقية قبائل الصحراء إلى ربط أنسابهم بكبار الصحابة وقادة المرابطين، بل جمعوا بين الانتماءين في سلاسل أنسابهم.

[12] يمثل غياب أي ذكر لبكرية بني ديمان في كتابات اليدالي وأشعاره، رغم فخره المتكرر ببني ديمان، دليلا بينا على أن التعلق بالنسب العربي لم يكن قد بلغ خلال حياة الرجل في القرن الثامن عشر ما يبلغه الآن من أهمية.

[13]Abdelwedoud Ould Cheikh, Sur le parler (klâm) des Awlâd Dayman. https://www.academia.edu/22085895/Sur_le_parler_kl%C3%A2m_des_Awl%C3%A2d_Dayman

[14] Paul Dubié, «l'îlot berbérophone de Mauritanie», Bulletin IFAN, 3-4, 1940, pp. 316-325.

[15] لا تعدو الرواية التي تقدم نشأة الطبقات الثلاثة وما أنيط بكل منها من وظائف محددة، وفق رواية ولد حبت التي نقلها عنه الكثيرون، إلى تقسيم وظيفي قام به أمير المرابطين أبو بكر بن عامر أن تكون محاولة لدمقرطة ماضي الصحراء وتجاوز ما يختزن من تراتبية حادة.

وفي حالة إدابلحسن الذين نأى أغلبهم عن المشاركة في حرب شربة، ولم يتعرضوا للاستنزاف البشري، عكس ما حدث لمجموعات قبيلة أخرى مثل مدلشْ وإدغزينبُ وبارتَّـيْـلْ رأى ولد الشيخ[16] أن خروجها منهكة من الحرب قد ساهم في تخليها بصفة أسرع عن التحدث بكلام زْناغَـة ودفع بعضها إلى الهجرة، فإن وضعهم لم يكن مختلفا كثيرا عن وضع بقية القبائل التي شاركت في الحرب وغدت بعد هزيمة شربة عرضة للإخضاع الاجتماعي والسياسي. بل إن مرويات شفهية لبني ديمان، لا تمكن قراءتها خارج البناءات البَعْـدية الموجهة إيديولوجيا، تقدم صورة غير ودية عن العلاقة بين إدابلحسن وقيادة المغافرة بعد نهاية الحرب، رغم أنهم كانوا من أصدر الفتوى التي شكلت الظهير الديني للقائد المغفري، هدِّي بن أحمد بن دامان، في حربه ضد التحالف الزاوي الصنهاجي. ولعل تماسك النسيج الاجتماعي لإدابلحسن، نتيجة بقاءهم بمعزل عن التبعات الخطيرة والمباشرة للحرب، ساهم في جعلهم الكتلة البشرية الأكثر استخداما لهذه اللغة حتى اليوم.[17]

ولا يمكن إغفال العوامل الإيكولوجية والاقتصادية في تشجيع هذا التنوع اللغوي الذي غاب عن بقية مناطق موريتانيا. وإذا ما أخذنا برأي روجر،[18] في ربطه للتجانس اللغوي الذي يعم منطقة الصحراء بطبيعتها الجافة وندرة غطائها النباتي وغياب التنوع الإيكولوجي داخلها، فإن بقاء هذا الجيب الصنهاجي الضيق في الكبلة كان استجابة لظروف مناخية ظلت تميز منطقة الكبلة عن بقية المناطق الموريتانية، خاصة الشمالية والوسطى منها، في معدلات الأمطار السنوية، وما تسمح به من أنشطة رعوية وزراعية على وجه الخصوص[19].

---

[16] Ould Cheikh, A. (2008). Note sur les Communautés Zénagophones [Note on Zenagophones Communities] . In Taine-Cheikh, C. Berber Studies : Vol.20. *Dictionnaire zénaga-français* [*Zenaga-French Dictionnary*] Netherlands: Rudiger Kopper Verlage.

[17] يمثل إدابلحسن نسبة نحو ثمانين في المئة من المتحدثين بهذه اللغة في منطقة الكبلة، وهناك قرى منها تنجغماجك ما يزال جميع سكانها، بمن فيهم الأطفال، يتحدثون هذه اللغة. Ould Cheikh, (2008) *Id,*.

[18] Roger Blench, The Linguistic Prehistory of the Sahara, presented at "The Trans-Sahara project: State Formation, Migration and Trade in the Central Sahara (1000 BC-AD 1500)" Conference, Leicester, Cambridge: Cambridge University Press, 2014, p. 1.

[19] للتوسع في دور وتأثير العوامل الإيكولوجية ودورها في صياغة وتغيير الأنماط الثقافية والاجتماعية والسياسية في الصحراء، وخصوصية الحدود الجنوبية والجنوبية الشرقية للصحراء، يمكن العودة إلى: Webb, j. (1995). Desert Frontier: Ecological and Economic Change Along the Western Sahel, 1600-1850. London: Wisconsin University Press.

ويبدو استخدام هذه اللغة منتصف القرن الماضي مرتبطا بقبائل زاوية تعيش على زراعة الذرة وجمع الصمغ العربي الذي كان أحد مواد التبادل مع القواعد التجارية الأوربية منذ أمد بعيد. وتعتمد هذه القبائل، وهذا ربما كان العامل الأهم، على تنمية الأبقار، كما يشير ديبيي[20]، وينحصر وجودها في مجال جغرافي ضيق ملائم لتنمية هذه الأنعام التي تحتاج قُربا من نقاط المياه ومراعي كثيفة نسبيا، ولا تتجاوز تحركاتها السنوية سبعين كلمترا، عكس ملاك الإبل الذين قد يجوبون سنويا مسافات أطول من ذلك بكثير. وهو ما يجعل الناطقين بكلام زناغَـة أقل تماسا مع القبائل الأخرى ملاك الإبل ذات نمط الترحال الأوسع والناطقة بالحسانية، اللغة الآخذة في التوسع.

وإذا ما نظرنا إلى تنمية الأبقار والتجارة مع الأوربيين، الركيزتين الاقتصاديتين الأساسيتين في نمط حياة الناطقين بكلام زناغَـة، بوصفهما نشاطين دالين على هذه اللغة والمتحدثين بها، فإنه يمكننا الحديث، بالاعتماد على مقترح قدمه زعيم انييرْزيغْ إلى القائم البرتغالي على محطة آرغين خلال هذه الفترة بتقديم (جلود؟) ألف بقرة سنويا مقابل حماية قومه من القراصنة الكناريين،[21] عن انتشار واسع لكلام زْناغَـة على طول الشريط الأطلسي من حوض آرغينْ، وربما شمال ذلك، حتى نهر السنغال خلال القرن السادس عشر. وقد يكون تقلص الفضاء الرعوي المناسب لتربية الأبقار، والتحولات الاقتصادية التي فرضها هذا التقلص على ناطقين سابقين بكلام زْناغَـة، عاملا في تخلي بعض مكونات تشمشة الشماليين وتندغة الشرقيين[22] عن هذا اللسان قبل أبناء عمومتهم ممن كانوا يعيشون في مناطق أكثر ملائمة لحياة آسْـكِـرْ (الاستقرار) القائمة على تنمية الأبقار.

آوَجْ انْ يُـزنَكنْ.. تازايْتْ التزاوِيتْ..[23]

لقد نزعت هذه القبائل الزاوية منذ أمد بعيد إلى التشبث بكلام زْناغَـة حنبا إلى جنب مع تضلعها من علوم اللغة العربية وحمل مشعلها. وكان كبار السن داخلها يحرصون على نقله

---

[20] ديبيي، مرجع سبق ذكره.

[21] انظر قراءة فرانشيسكو فرير لرسالة الحاكم البرتغالي لأغادير دوم إلى ملك البرتغال جواو الثالث في: Francisco F, (2011). The "Narzguas," Forgotten Protagonists of Saharan History. Islamic Africa, Vol. 2, No. 1. Pp. 35-65. P.

[22] ديبيي، مرجع سبق ذكره.

[23] التزايتْ وعاء من جلود البقر تحفظ داخله الأغراض المنزلية.

لأبنائهم. وظل رفضُ الحديث بغير هذه اللغة قائما حتى وقت قريب. إذ تنقل الباحثة الفرنسية تين الشيخ موقفا حازما لدى أولاد محمد بن يوسف (إدابلحسن) من حديث صغار السن بالحسَّانية باعتباره فعلا غير أخلاقي. وكان بعض أولاد ديمان يحرصون حتى منتصف القرن الماضي، حين يبتعثون أبناءهم للدراسة في المحاظر، أن يتعلموا بالموازاة مع العلوم الشرعية واللغوية كلام زْناغَـة ويؤكدون ذلك على شيوخهم.[24]

وإذا كان التمسك بكلام زناغَـة، كما تجسده هذه المواقف التي استعرضنا آنفا، وتعكسه المقولة التي أشرنا إليها من قبل، تعبيرا عن الروح الزاوية، فإن "التزاويثْ" بمعناها الوظيفي "الطبقي" تقوم نظريا على التمسك بتعاليم الإسلام والتضلع من علوم الشريعة واللغةِ العربية. وتُـقدَّم "التزاويثْ"، كما تحرص التقاليد الزاوية على غرسها في الصغار، على الأقل في الفضاء الذي يهمنا، بوصفها، قبل كل شيء، نقيضا لـ"التزَنْـغيثْ،" التي تحيل نظريا إلى الجهل والتبعية، وتمايزا عنها ووسيلة لتجنب الوقوع تحت مظلتها. وقد صب رافدا التزويثْ هذان في نهر الكبلة وحركا مياهه بهدوء في اتجاه مغاير تماما لمسار التطور الثقافي والألسني الذي سلكته بقية مناطق ما يعرف تاريخيا بـ"تْرابْ البِيظانْ". ويمثل ما سماه المستشرق البريطاني هنري نوريس "إسلام صنهاجة،"[25] الذي يتميز بحضور طاغ لـ"كرامات الأولياء" وسِيرهم وقدراتهم الخارقة لقوانين الطبيعة، تجسيدا لهذه الخصوصية الثقافية، وكان هذا "الإسلام" فضاء دينيا وأخلاقيا احتضن ورعى بقاء كلام زناغَـة طيلة القرون الماضية، وكان هذا اللسان في المقابل وعاء له وظل جامعا للكثير من تراثه حتى اليوم.

ورغم أن الإنتاج العربي العالِم لهؤلاء الناطقين بكلام زْناغَـة، ممثلا بكتابات مثل "شيم الزوايا" و"أمر الولي ناصر الدين" و"النصيحة" و"المربي شرح صلاة ربي" للشيخ محمد اليدالي، و"كرامات أولياء تشمشة" لوالد بن خالنا، و"ذات ألواح ودسر" لسيدي أحمد بن اسمه، يشكل في أيامنا هذه التعبير الأكثر انتشارا وتداولا للتقاليد الهاجيوغرافية في منطقة الكبلة، فإن

---

[24] مقابلة مع خالي القاضي محمذن ولد محنض باب (الملقب سيلومْ) في آمنيكير مارس2017. ويمثل سيلومْ استثناء نادرا، داخل الوسط الديماني، سواء فيما يتعلق بإتقان هذه اللغة أو الاهتمام بها والاعتزاز بها وبتراثها وتراث الناطقين بها في المنطقة.

[25] Norris, H. (1969). "Znāga Islam during the Seventeenth and Eighteenth Centuries." In *Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London,* Vol. 32, No. 3. pp. 496-526

الذاكرة الشفهية، وحتى التقاليد العالمة المكتوبة بالحرف العربي، حفظت لنا تراثا ثريا بكلام زْناغَـة احتل فيه التغني بكرامات الأولياء والتوسلُ بهم لقضاء الحاجات الصدارةَ، وشكل مصدر فخر واعتزاز لأهله. وإلى هذه الأغراض، التي يبدو أنها ظلت مطروقة على نطاق واسع خلال المرحلة التي أعقبت حرب شربية وحتى وقت قريب، يعود البيتان التاليان (الغاف) من كلام زْناغَـة.

أزْ آرْكَـئِـذْ اذ لاغـراضْ أزْ آرْكـئذْ ابـغْ اكِـيـنْ

كك آذْ ان تُـضْ مينْ آضْ كَكْ اذا ان اشْـجِم يفجِّـينْ[26]

وقائل هذين البيتين هو أحمد بن آغليذِّيثْ التمغْـلاوي يتوسل بصَـبَّـارَ بن بابحْمَـدْ، أبرز علماء أولاد ديمان منتصف القرن السابع عشر. ويفتح هذان البيتان، اللذان يشيران إلى إعادة صَـبَّـارَ عينَ رجل سقطت إلى مكانها، والتئام زقٍّ مشقوق بعد لمسه له بيده، نافذة على عالم موغل في صناعة الأولياء من ذوي القدرات اللامحدودة. وتلبي هذه التقاليد الهاجيوغارفية وما ترسم من صور قوية لعلماء الزوايا وأوليائهم في منطقة الكبلة حاجات ضاغطةً لدى هذه القبائل التي حُـرمت من حمل السلاح، وكان عليها أن تبتكر "أسلحةَ ضعفاءٍ" بديلةً راكمت بها خلال القرون رأس مال رمزي كانت له فعاليته الدفاعية والاقتصادية كذلك.

وداخل هذه التقاليد الهاجيوغرافية والأدبية الناطقة بكلامْ زْناغَـة، يبرز اسم محمد والدْ بن خالنا، وهو مؤرخ وعالم ومتصوف ديماني توفي سنة 1798، منفردا في الصدارة. وقد خلف والد، إضافة طبعا إلى مؤلفاته التاريخية والهاجيوغرافية بالعربية الفصحى، إنتاجا أدبيا صنهاجيا فريدا تمثل قصيدتا المزروفة والمكزوزة، غير المتوفرتيْـن للباحثين حتى الآن، للأسف الشديد، دُرَّتَـه، بل هما في الحقيقة دُرَّتا التراث الصنهاجي بأسره في "تْـرابْ البيظانْ"، وأسمى ما بقي، أو ما بقي ذكره، من هذا التراث. وتعتبر هاتان القصيدتان فريدتين سواء من حيث حجمهما، أو المواضيع التي تطرقتا إليها. فقد وصلت أبيات الأولى إلى مئة وخمسين بيتا، بينما بلغت الثانية

[26] يقدم نوريس، نفس المرجع السابق، ص. 500، ترجمةَ المختار بن حامدن لهذين البيتين كالتالي: "أزورك للأغراض (لحاجاتـي). أزورك للـحاجة الكثيرة. أنت صاحب عين الرجل السابق. أنت هو صاحب الزق المنقسم."

مئتين وثمانية وثلاثين بيتا. وقد عرج الشاعر في القصيدة الأخيرة (المكزوزة) على أغراض ومقاصد شتى تراوحت بين الابتهالات والتوحيد ومديح الرسول الكريم، فضلا عن تناول مفصل للموت والدفن والبعث وشفاعة الرسول، وكذلك لنزول القرآن وسُوَره. كما قدم والد في هذه القصيدة لائحة مفصلة بالمصنفات اللغوية والشرعية التي كانت متداولة حينها، وعرف بمؤلفيها. وتضمنت القصيدتان رفضا لتجسيم الذات الإلهية وتشنيعا على القائلين به.[27]

وينبئ تناول هذه المواضيع المتشعبة وذات البعد العقدي المهم بكلامْ زْناغَـة عن حضور طاغ لهذا اللسان حينها في الدرس المحظري، كما تنقله التقاليد الشفهية. ويدل كذلك على مستوى عال من إتقان هذه اللغة وقدرة على تطويعها لاستيعاب المعارف الإسلامية وما تحمله هذه المعارف من جدليات وإشكاليات بالغة التجريد والتعقيد والدقة والحساسية. ولم تخلُ القصيدة الأطول (المكزوزة) من استعمال للألفاظ العربية والحسانية، بينما جاءت القصيدة الأقصر (المزروفة) صنهاجية صرفة "يعسر ضبطها لأن ألفاظها قد اندرست" وفق تعبير سيدي أحمد ولد اسمهُ الذي ينقل مطلعها كالتالي:

اتْـرغْ نِـنْـــكْ أراكـلِّـيــذْ إيشَّـــذْ تَـتَّـــاشِـرْ اذْ جانْ
إيشْ إتُّـوجَـشْ إذْ تنْجَـغْـفِـيذْ يسَّـغْـذانْ اشْ انْ يستغانْ[28]

ويقدم نوريس الترجمة التالية نقلا عن أحد أحفاد والد بن خالنا هو محمد عالي الديماني:

طلبت من الرب مالكي وسيدي ذي الوجود القديم، الغني عن كل شيء
الغني عن المـحل فليس عرضا الغنـــي عن المخـصَّص فليس جرما[29]

أما مطلع المكزوزة، فقد طغت عليه الألفاظ العربية والحسانية:

اترغْ ننْكْ آرْ السلطانْ فلا أبـغـي به بديلْ
هو الديان المستعين على ما نقول وكيل

---

[27] Norris, op. cit. p. 525.
[28] ولد أسمهْ، ذات ألواح ودسر، مخطوط من دون تاريخ.
[29] Norris, op. cit., pp. 524-525.

وقد احتلت هاتان القصيدتان مكانة متميزة لدى النخب الشمشوية التي تضفي كثيرا من القداسة، وتتوسل البركة، في كل ما يخلفه "أولياؤها" من إنتاج شعري أو نثري. ويمثل ما كتبه ولد اسمهُ عنهما هذا الموقف أحسن تمثيل، إذ يقول في معرض ترجمته لوالدْ وحديثه عن "كراماته" ومصنفاته: "وله قصيدتاه الشهيرتان في التوسل بالوزن الحساني في لغة البربر وهما طويلتان جدا شهيرتان بكثرة *البركة* والحسن دالتان على *شدة فتح قائلها*."[30]

وتقدم قصيدة أخرى لوالد صورة عن الأغراض الهاجيوغرافية التي كانت مطروقة على نطاق واسع في الشعر الصنهاجي. وفيها يتنبأ الرجل الذي عاش خلال القرن الثامن عشر بدخول المستعمر الفرنسي إلى موريتانيا، وبما يفترض أن هذا الاستعمار سيجلب من أمن وعافية ورخاء للمشتغلين بالعلم (الزوايا) في المنطقة:

يومِلَّه آزْمَـــنّي آيْـشْ اذْ يُكتَبْ آبَّجْمَذْ ورْيَسْكْر كارَ
آشْـــكَـــنْ ادِّ جـــاءَذْ آشـكْـتُـبْ آرْ ابريبيرة آرْ انهُكَـارَ
آزِهَـدَنْ مَـانَـنْ دكْ دثْـــجُـــبْ ذكْ آزْمنيَنْ دكْ النصارا

ويقدم لها نوريس الترجمة التالية:

سيأتي زمان يكتب فيه الطالب ويـعـمـل دون مـقـــابل
وسينزل أهل آشُـكْـتب (إدَوْدايْ) لدى بئري ابريبيرة وانهكارة
ويعيش الناس زاهدين بين الكثبان حين يأتي المسيحيون إلى الأرض[31]

وترسم هذه القصيدة لحظة حرجة من تاريخ زوايا الكبلة تبدو فيها إحدى القبائل المكونة للتحالف الخماسي لتشمشة، هي إدودايْ التي تضع وسْم آشُـكْتُـبْ (القلم) على الأنعام، غير قادرة على التخييم لدى هاتين البئرين تجنبا، ربما، لعمليات نهب أو سلب. ورغم أننا لا نملك تاريخا محددا لإنشاد هذه القصيدة، فإن وضعية "السيبة" التي طبعت الحياة غرب الصحراء، وخاصة حالة الاحتراب التي عاشتها الترارزة إبان حياة والدْ، تكفينا مؤونة البحث عن واقعة بعينها. فقد شهدت أربعينيات القرن الثامن عشر وما بعدها حروبا طاحنة بين إمارتي الترارزة والبراكنة،

---

[30] ولد أسمهُ، مرجع سبق ذكره.

[31] Norris, op. cit., p. 525

شاركت فيها الإمامات والسلطنات الزنجية، في إطار الصراع على الموانئ الأطلسية والضرائب العرفية (آمْـكُبـُّـل) كانت معركة جفْـجَـف، 1770 أشهر وقائعها، وحروبا تروزية داخلية بين أولاد أحمد من دامان وأولاد دامان من أبرز معاركها وقعة دامان، 1784.[32]

ورغم أن التجمع الشمشوي لم يكن بالطبع طرفا في أي من هذه الحروب، لكن مجرد اضطراب الأوضاع الأمنية من حول هؤلاء الزوايا العزّل العائدين للتو من نكسة شربية يجعلهم يستدرون قرائحهم الشعرية ويمنون النفس بزمن خال من المصاعب والمتاعب، ولو كان ذلك على أيدي المسيحيين (الفرنسيون والإنجليز) الذين كانوا حينها حاضرين بقوة على الشواطئ الأطلسية وعلى ضفاف نهر السنغال. وسيظل هذا الأمل بدور للقوى الأوربية مساند للزوايا، كما عبر عنه والد في القرن الثامن عشر، قائما لدى البعض، كما تشهد مراسلات إدو الحاج مع الفرنسيين، قبل أن يتحول إلى سياسة واقعية براغماتية مع الشيخين سيديَّ بابَ سعد بوه بدايات القرن العشرين.

وتعكس القصيدة التالية، مجهولة القائل، هذا الارتباط بالمكان والرغبة القوية في الوفاء له والتشبث به.

نَمَـغْ ايْ اَلّ إيلَّـنْ يَـغْـنُونْ نُكَّأذَنْدَ كِيفْ اِسْـكُظَن

أُوجَـــنَّـــأنْ اَءْرَنْ اَللَّـــوْنْ وَرْتَـنْ يَأ يَأجِـبَرْبُـظَنْ

تُؤشِـــذَنَّـــأنْ تَـاكَّ اَللَّوْنْ اَللَّوْنِنْ اَمْغَرْ يُمْجُـظَنْ

اَءْفنَّـأَنْ اَءنْـتَـنْ غُـرظَـوَنْ بُوزِكْرِ اِذْ نْوَيْشْ أظُـظَنْ

ويمكننا تلخيص معناها كما يلي:

[32] ولد السعد، م. (1999). إمارة الترارزة وعلاقاتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703 إلى 1860. أطروحة دكتوراه. جامعة تونس الأولي. صفحات: 268-271.

نحمـد الله على مــيرتــنا لزرع الزنوج فور حصاده
وقد حملناه على حميرنا ذات الألــوان الــزاهــية
ألوانها تشبه لون الشيخ صاحب الهيئة الجميلة
ومراعينا ببئري انويش وبوزكري خصيبة

وتقدم هذه القصيدة، على عكس سابقتها، لمحة عن حياة هادئة بين آبار إغيدي يطبعها الأمن النفسي والغذائي. ويبدو الارتباط جليا بين هؤلاء القوم وبين جيرانهم الجنوبيين الزنوج من سكان شمامة على ضفاف نهر السنغال. وهو ارتباط وتداخل ألسني يرى ولد الشيخ[33] أنه ساهم في إشاعة التعدد اللغوي في هذا الجزء من موريتانيا، وعزز من حظوظ بقاء هذا اللسان مستخدما حتى الآن. وترسم القصيدة التي دونها الباحث الفنلدني ميكا ألهنين في قرية انيفْرارْ 2018، والتي نفترض أن قائلها شاعر ديماني، وبالتحديد من إديدنهنض الذين يعرفون بأهل نوَيْشْ، ما يعتبر حياة مثالية يتوفر فيها الزرع ويعم فيها الخصبُ المراعي والمرابع.

ولا شك أن وراء هذا التراث الشعري الصنهاجي الهزيل المتداول حاليا تقاليد عريقة نعتقد أنها كانت الرافد الأساسي للأدب الحساني الذي تجري بحوره الشعرية وفق نفس القواعد. كما لا تدع لنا تسميات الأدوات الموسيقية (آرْدِينْ، التدِنيت، التشُبطِـنْ .. إلخ)، واسم الطبقة المحترفة المتخصصة في أدائه (إيغَّـاونْ)، من خيار سوى القول إنها تقاليد صنهاجية سابقة على الوجود العربي، وإن تم تأميمها، واحتكارها في فترات زمنية لاحقة.

لقد كانت هذه اللغة وعاء حمل تصورات وأحلام الناطقين بها وطموحاتهم "التحررية" التي عجزوا عن تحقيقها بالسيوف والبنادق. ولعل حملها لرؤية خاصة عن العالم قد ساهم في إبقائها حية طيلة هذه القرون رغم المنافسة القوية التي واجهتها من اللهجة الحسانية التي كانت لغة أسياد الصحراء، وكانت تمتح من اللغة العربية المكتوبة واسعة الانتشار حينها والحاملة لرسالة الإسلام وذات التقاليد الأدبية والثقافية الرفيعة.

عوامل الانحسار وأدوات البقاء..

[33] Ould Cheikh (2008), op. cit.

وإذا كان ديبيي[34] قد لاحظ في أربعينيات القرن الماضي أن كل المتحدثين بهذه اللغة من ثنائيي اللغة، وأشار إلى أنه في بدايات القرن كان ما يزال هناك ناطقون قلة بهذه اللغة يجهلون اللهجة الحسانية تماما، فإن مصادر شفهية تحدثنا إليها تقدم حالات من هذا النوع في وقت أقرب داخل أولاد بميجة (أولاد ديمان) منتصف القرن العشرين، وهو ما يرجح وجودها بقوة لدى تندغة ولدى إدابلحسن بشكل أخص، في وقت أقرب من ذلك. وما تزال لكنة بعض المنحدرين من هذه القبائل تظهر طغيانا واضحا للنظام الصوتي الصنهاجي أثناء حديثهم بالحسانية. وتمكن ملاحظة هذا الأمر بوضوح لدى بعض المنحدرين من إدابلحسن إديدنهنض (أولاد ديمان)، خاصة فئة الحراطين من الأخيرين. وقد ظلت فئة الحراطين داخل أولاد ديمان مثلا أكثر حفاظا على استخدام هذه اللغة وأكثر حملا للأسماء ذات الأصل والجرس الصنهاجي البين مثل تَمَـغْـدِس وتمْـرزْ غِنْـتْ وأوْبكْ[35]. وقد يفسر هذا بحرمان هذه الفئة تاريخيا من وسائل التعليم وأدوات المثاقفة، ولا وعيها بـ"ضرورة" التخلص من هذا الإرث الذي لا ينظر إليه حاليا في موريتانيا بكثير من الاعتزاز.

وفي حالة أولاد ديمان مثلا، وهم إحدى القبائل الثلاث التي ما تزال قلة من أبنائها تتحدث كلامْ زْناغَـة حتى الآن، نلاحظ أن مسار انحسار هذه اللغة، كان أسرع وتيرة داخل الأفخاذ التي نحت تاريخيا نحو الاندماج سياسيا وثقافيا مع النظام الأميري للترارزة،[36] وكانت أكثر حضورا في المشهد السياسي خلال الفترة الكولونيالية وأكثر انخراطا لاحقا في الأجهزة البيروقراطية الناشئة للدولة الوطنية من تعليم وإدارة، وأقرب جغرافيا إلى المراكز الإدارية مثل المذرذرة. ويتعلق الأمر هنا بأولاد سيدي الفاللِّ، وإدابْهم ابَّـيْر التورسْ، وبعض أولاد باركللَّ (أهل بدفيَ وأبكاكْ). بينما ظل استخدام كلامْ زْناغَـة أكثر رسوخا داخل المجموعات الأخرى (إدابْهم انيفرارْ، أولاد يُعقبنللَّ، وخاصة لدى إديِدَّنْـهنْضْ) التي اتخذت تاريخيا مواقف أكثر راديكالية من السلطة

---

[34] بول ديبيي، مرجع سبق ذكره.

[35] خلال محاضرة ألقاها عبد الودود ولد الشيخ بكلية الآداب بجامعة نواكشوط مايو 2018 أثار ذكره ناصر الدين باسمه "أوبك" انتباه أحد نشطاء الأرقاء السابقين الحاضرين، ما دفعه للسؤال عما إذا كان قائد حركة التوبة، بناء على اسمه الذي لم يعد مستخدما الآن إلا من طرف الحراكين، ينتمي لهذه الشريحة ونُسب زورا إلى البيظان، في إطار ما يتعرض له الأرقاء السابقون من إقصاء.

[36] تدل حادثة خلع الزوايا، كما ينقلها اليدالي، خلال حرب شربة لأتفغ الأمين ولد سيدي الفاللِّ بعد جنوحه إلى السلم مع حسَّان، وارتياح الأخيرين لخلافته ناصرَ الدين، كما ينقل باكاه في تاريخ الترارزة، على تقارب بين أتفغ الأمين الذي كان متزوجا من حسَّان وقيادات الأخيرين.. وتمثل أزمة بيع العلك التي نشبت في أربعينيات القرن التاسع عشر إبان حكم الأمير التروزي الأشهر محمد لحبيب، كما يرويها باكاه، استمرارا لهذا الانقسام الحاصل على مستوى أولاد ديمان من السلطة الأميرية. فقد اصطف أولاد سيدي الفاللِّ مع هذا الأمير في رفضه التبادل التجاري مع الفرنسيين في محطة إدوَ الحاج، بينما وقف أولاد يُعقبنللَّ خلف محنضْ بابَ ولد اعبيْدْ في تحالفه مع إدو الحاج وتحدوا السلطات الأميرية مواصلين التبادل التجاري مع الفرنسيين.

الأميرية، وكانت أكثر محافظَـة تجاه الإدارة الاستعمارية (رفض تولي القضاء في أجهزتها) وتركتها المتمثلة في الدولة المستقلة، و/أو كانت أكثر عزلة جغرافية وبعدا عن المراكز الحضرية.

ونلاحظ كذلك أن القبائل، أو أفخاذ القبائل، التي نجحت في الإبقاء على استخدام كلام زناغَـة كانت أكثر محافظة في بناها الاجتماعية وزيجاتها[37] وتحالفاتها، وينتمي أفرادها في غالبهم الأعم إلى الجد الجامع للقبيلة أو الفخذ، بينما استقبلت القبائل الأخرى حيث الاستخدام الأقلُّ، أو المنعدمُ حاليا لكلامْ زْناغَـة، أو الأفخاذ الأخرى داخل القبيلة الواحدة، وافدين من قبائل أخرى، خاصة من تلك المصنفة ضمن طبقة المحاربين التي تخلت في إطار ما يعرف بظاهرة "التوبة" عن نمط الحياة الخاصة بحسَّان واعتنقت قيم "التزاويت".

ولعل الغياب النسبي لإدابلحسن ولمثلوثة تندغة، مقارنة مع عموم أولاد ديمان، عن المشاركة في الهامش السياسي الذي يتيحه النظام الأميري للزوايا في مجال القضاء والإفتاء وأعمال الديوان الأميري الأخرى مثل المراسلات، وموقفهما المحافظ من التغيرات المصاحبة للسيطرة الفرنسية بدايات القرن العشرين وقيام الدولة الوطنية في ستينيات القرن الماضي، قد يفسر هذا الحضور الذي ما يزال حتى الآن قويا لهذا اللسان داخل هاتين القبيلتين، أكثر منه لدى أولاد ديمان.

وإذا ما أخذنا أنموذجا من إدابلحسن في قرية تنجغماجك حيث ما يزال كلام زناغَـة متحدثا من طرف جميع سكان هذا التجمع، نلاحظ أن أبناءه ظلوا أوفياء لنمط الحياة التقليدية بتعليمها المحظري. وهو التعليم الذي شكلوا أبرز قلاعه في منطقة الكبلة على مدى العقود الماضية مع الشيخ أحمدّو ولد محمذنْ فالْ الذي استقطبت محظرته طيلة العقود الأخيرة من القرن العشرين آلاف الطلاب من مختلف الأحياء والولايات المجاورة. كما بقيت أغلب النشاطات الاقتصادية لأبناء تنجغماجك ضمن الإطار التقليدي الممارس تقريبا منذ ما قبل الفترة الاستعمارية مثل تنمية المواشي ولاحقا ممارسة التجارة في المراكز الحضرية. وكان لأهل هذه القرية موقف صارم ضد

---

[37] تمثل الزيجات الداخلية مثلا في فخذ أولاد أحمد بن يوسف من قبيلة إدابلحسن 90 في المائة، وهي القبيلة التي تضم نحو 80 في المائة من الناطقين بهذه اللغة في موريتانيا. انظر Taine-Cheikh, C. (2008). Historique et Sources du Dictionnaire. In Taine-Cheikh, C. Berber Studies: Vol. 20. *Dictionnaire zénaga-français*. Netherlands: Rudiger Kopper Verlage, p. LXV.

إنشاء أي مدرسة نظامية عقودا بعد استقلال البلد وتعريب النظام التعليمي. و قد ظلوا يعزفون حتى عن التعاون مع البعثات الحكومية، ويزهدون في ما توفره الدولة الوطنية من خدمات نادرة ومن فرص توظيف شحيحة في أجهزتها البيروقراطية.

وتقدم سيرة المتعاون الذي عمل مع الباحثة كاترين تين الشيخ في جمعها لأشمل معجم لهذه اللغة، محمدنْ ولد أحمدُّو يحيى، نموذجا مثاليا لنمط الحياة التقليدية للمنحدرين من هذه القبائل. فلم يتحدث خلال نشأته داخل محيطه العائلي سوى كلام زْناغَـة، وتلقى تعليما محظريا (دينيا ولغويا) تقليديا كان كلام زناغَـة داخله لغة شرح وتفسير، ثم رحل بعد ذلك للتجارة في السنغال، قبل أن يعود للعمل في التعليم النظامي بموريتانيا.[38]

آمْـنيغِيرْ نموذجا..

ولكي نُـقرب أكثرَ صورة تسارع التخلي عن استخدام كلام زْناغَـة لدى أولاد ديمان، نستعرض حالة هذا اللسان في قرية آمْنيغِـيرْ ومسار انحسار استخدامه بين أبناء هذه القرية على مدى العقود الثلاثة الماضية، والظروفَ التي أحاطت بهذا المسار. لقد شكل هذا البئر المعزول جغرافيا والواقع بعيدا عن محاور الطرق الرئيسية أو المراكز الحضرية، في بدايات ثمانينيات القرن العشرين، نهاية لحياة تَرحال محدودِ المسافة جدا، إلا في حالات الاضطرار، كانت تقوم عليه حياة أربع عائلات من صميم أولاد ديمان كل زيجاتها من داخل القبيلة. وكان يرتبط بهذه العائلات ما يرتبط عادة بأحياء الزوايا من حلفاء وتابعين (آزناغة) وصناع تقليديين، وأرقاء (سابقين) على وجه الخصوص.

وكانت الحسَّـانية حينها قد أصبحت، وربما كانت قبل ذلك بفترة طويلة جدا، لغةَ الحديث اليومي لهذا التجمع القروي المحافظ الذي يرى نفسه تجسيدا قريبا من المثالي لقيم التزَاوِيتْ، أو التمثل الصنهاجي للإسلام، كما يطلق عليه نوريس، بما له من إشعاع علمي، كان إسهام أسرة أهل محنْضْ بابَ ولد اعبَيدْ في صناعته محوريا، وبما يطَّـرِد في سِيَـر أسلافه، المروية شفهيا والمتداولة في أراجيزَ، من كرامات وخوارقَ للطبيعة ترتبط حتى بامتلاكهم للبئر وبأصول بعض

[38] Taine-Cheikh, C. (2008). Historique et Sources du Dictionnaire. In Taine-Cheikh, C. Berber Studies: Vol. 20. *Dictionnaire zénaga-français*. Netherlands: Rudiger Kopper Verlage, p. LXV.

أرقائهم (السابقين). غير أن كلام زْناغة كان حتى ذلك الوقت حاضرا بقوة، كلغة حديث يومي هو الآخر، لا يطيب لكبار السن التخاطب بغيره خاصة النساء منهم. وكانت النسوة ترى في تجاذب أطراف الحديث به وفاء لذكرى الأسلاف الناطقين به، وتعبيرا عن الحميمية والقرابة التي تربط بينهن. وكن ينظرن إلى هذا اللسان كخصوصية وهوية وجزء من منظومة أخلاقية وروحية وماض سحيق يحتفظن تجاهه بكثير من الاحترام والتقدير. وكان من الاستخدامات المفضلة لهذا اللسان لدى الجدات "تماري" أو ترقيص الأطفال الذي نورد منه الأنموذج التالي الذي أنشدته جدتي أم الخير بنت أحمد محمود بمناسبة ولادة شقيقي الأصغر إسحاق سنة 1991:

يِـتْـزرَّعَ يِـتْـشَـرْكَـشَ

إِنْـذَ يَـسَـكْـرَ ولَّ اتْـفُـشَّ

تَـمَرْؤُسَـشْ تكـــــفُّــشَّ

ويمكننا نقله إلى العربية كالتالي:

سيكثر لديه الزرع

وسيكثر لديه الشركاش (البطيخ)

ولن يفعل إلا ما يحمد فعله

وستتزين زوجته بالحلى

وكان تعداد سكان هذه القرية في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي نحو مئة، وكان الاعتماد على تربية المواشي، التي يشرف عليها أرقاءٌ وأرقاءُ سابقون، قد بدأ في التراجع لصالح أنشطة أخرى مثل التجارة في المراكز الحضرية الكبرى كنواكشوط وحتى خارج البلاد في مدينتي داكار وكولخ السنغاليتين، والانخراطِ في الأجهزة البيروقراطية الناشئة للدولة، خاصة من بوابتي القضاء والتعليم. وفي سنة 1990 كان تعداد المتحدثين بهذه اللغة نحو ثلاثين شخصا، وكانوا كلهم قد تجاوزوا الأربعين، باستثناء واحد أو اثنين. وكان بعض الشبان ممن بلغوا حينها العشرينيات والثلاثينيات يمكنهم فهم ما يجري حولهم من أحاديث هذه اللغة دون القدرة على التعبير بها بشكل

سليم. واليوم بعد نحو ثلاثة عقود من ذلك التاريخ لا يتحدث هذه اللغة الآن في آمنيغِـيرْ، بعد رحيل الجيل الكبير المولود في عشرينيات القرن العشرين وقبلها، سوى ثلاثة أشخاص طاعنين في السن ممن اقتربوا من الثمانين أو تجاوزوها. وقد تراجع مستوى الشبان الذين كانوا مرشحين للحفاظ على استخدام هذا اللسان بعد فكهم الارتباط مع القرية والانتقال للعيش، أو قضاء أغلب الوقت، خارجها. ويكاد اليوم لا يستطيع من أظهروا منهم في أيام الشباب بوادر على إتقانه أن يلقوا به التحية الآن.

وقبل نحو ثلاثة عقود كانت أسماء سكان هذا الحي من الأسياد السابقين، وإن بدت عربية في مجملها، ما تزال تحتفظ في بعضها بجرس أمازيغي بيِّن مثل محنْضْ ومحنْضْ بابَ ومِحِـمَّـذِنْ ومُحَـمَّـذِّنْ، كتصحيف لمحمد، وابَّاتَ (؟)، وهي أسماء ما تزال تطلق على المواليد الجدد حتى الآن. وأما لدى الأرقاء السابقين (الحراطين) الذين كان بعضهم يحذق كلام زْناغَـة ويحفظ منه أزجالا شعبية تتغنى بمآثر أسياده السابقين ينشدها في مناسبات محددة، فقد كانت أسماءٌ مثل تَمغْـدِسْ (المباركة) وتَـمرزْغِـنْتْ (السالمة) ووَرْزِغْ (؟) وبَيْبَّ (؟) واكويْـكَّ (؟) ما تزال متداولة. غير أن هذه الأسماء لن تجد طريقها إلى الأجيال الصاعدة الذين سيحملون كلهم أسماء عربية صرفة من المتداول في عموم موريتانيا الآن.

ولا يبدو أن كبار السن، رغم ما كان بعضهم يبديه من جهد وحرص على التحدث حصرا بكلام زناغَـة لجيل المراهقين والشباب، قد نجحوا في زرع أي نوع من الاهتمام أو الاعتزاز بهذا اللسان لدى الأجيال الحالية. وكانت عملية نقل هذا اللسان من الأجيال الأكبر سنا إلى الأصغر لا تخلو، في واقع الأمر، من التباس واضطراب. فقد كان هذا اللسان يوفر لكبار السن فرصة للحديث والخوض في أكثر القضايا حساسية دون أن يطلع عليها أطفال ممن لا تؤمن ثرثرتهم بما يتداوله الكبار من إشاعات وحكايات ذات طبيعة خاصة، لكن كبار السن، رغم ما كانوا يحيطون به لسانهم هذا من خصوصية، كانوا يتوقعون من الأطفال حين يصبحون مراهقين أن يتقنوا هذا اللسان، ويرون في فهمه والتحدث به بطلاقة إحدى أمارات النباهة والفتوة. وقد كنت شاهدا على علاقة ألسنية فريدة بين بعض الأمهات وأبنائهن في هذه القرية. ففي الوقت الذي كانت الأمهات تحرصن

على مخاطبة أبنائهن بكلام زناغَـة في شتى الظروف، كان الأبناء يعزفون عن الرد بهذه اللغة ويحرصون على الرد بالحسانية، كنوع من التبرم أو الضيق بلغة لا تحتفظ الأجيال الصاعدة تجاهها بكثير من التقدير.

الطوبونيميا.. آشُـكْـتبْ صنهاجة

قد يندثر كلام زناغَـة خلال العقود القادمة، فتطمره، كما طمرت لسانَ آزير من قبله، رمالُ الصحراء التي تسارع زحفها منذ موجة الجفاف سبعينيات القرن الماضي ففككت البنى التقليدية التي احتضنت المتحدثين بهذا اللسان، كما يرى ولد الشيخ،[39] منذرة بنهايته في أمد قريب. لكن حتى بعد هذا الاندثار بزمن طويل، سيبقى لهذا اللسان هامش برزخي بين الموت والحياة لا يقتصر على منطقة الكبلة، بل يتجاوزها إلى عموم التراب الموريتاني. فعلى عكس الألسِنة والإثنونيميا والسرديات الجينيالوجية القبلية التي أدرات ظهرها لغير العربي (الصنهاجي واليهودي والأوربي المسيحي)،[40] ظلت الطوبونيميا، لا وعيا منها بما يدور حولها من تغيرات، وفية للهوية الصنهاجية، ولم ترغب عنها إلا في حالات نادرة، وقريبة العهد في أغلب الأحيان.

وبعد قرون من انحسار لثام الصنهاجي، الذي كان علامته المميزة وصِـلَـة وصله مع أبناء عمومته الطوارق، ما تزال الصحراء الموريتانية تضرب على وجهها بلثام طوبونيمي صنهاجي براق، وتُـدلي جلبابا أمازيغيا على المرتفعات والسهول والوديان. فمن مرتفعات تغانت (الغابة الصغيرة) في الوسط وآدرار (الجبل)، حيث جبل لمتونة، وإنشيري (ذو الشجر) في الشمال، مرورا بأفلَّـة وآوكار وأغان حتى إغيدي أو إغئذن (الآبار الطوال) وانواللان وآتكور، حيث معاقل آخر الناطقين بكلام زناغَـة في موريتانيا، وحتى ضفاف نهر أبجك[41] الذي يشكل حدودا طبيعة بين موريتانيا والسنغال، تتحدث الجغرافيا الموريتانية عن حضور صنهاجي يأبي الاندثار ويرفض الاستسلام أو الانصياع لمحاولات التطويع الإيديولوجية للمكان.

---

[39] Ould Cheikh (2008). Op. cit.

[40] عن رفض السرديات المحلية للأصول غير العربية والإسلامية، البرتغالية نموذجا، انظر: Freire, F. (2016). The Hemeila Riddle: Genealogical Reconfiguration of Pre-colonial Encounters in Southwestern Mauritania. *Journal of History and Anthropology*, vol. 28, pp. 149-156.

[41] يرجح يحيى ولد البراء، في كتابه ملكية الأرض في موريتانيا ، أن تكون هذه التسمية التي يطلقها سكان الترارزة على نهر السنغال، ذات أصل صنهاجي. وقد ورد بهذا الاسم في كتاب باب ولد الشيخ سيديا عن إمارتي إدوعيش ومشظوف.

وإذا كان حماه ولد السالم[42] قد ذهب إلى القول إن اسم موريتانيا ذو أصل أمازيغي هو "اتمور انتاغْ،" أي أرضنا، دون أن يؤسس ألسنيا لهذا الافتراض، أو يحيل إلى مرجع مكتوب أو شفهي ضليع بهذه اللغة، فإن أهم مدينتين في البلاد، نواكشوط ونواذيبُ، يجسدان من دون شك هذا الطغيان الطوبونيمي للأمازيغية ويثبتان مركزية هذه اللغة في موريتانيا. وتعني نواكشوط، وفق ما ينقله ولد أحمد يورة[43] (م. 1922) الذي يعيد صَنْهَجَتها، فيقول: "نوكشظ وكشُظْ بالبربرية" وفق تعبيره هو "من [وما] لا أذنان له، مقطوعهما، وهو البئر الذي بنت الفرانسة عنده الآن". وكان يتحدث حينها عن العقد الثاني من القرن العشرين. وتمثل محاولات طمس الأصل الصنهاجي لنواكشوط بصياغتها على "نواق الشط" نموذجا غير محترف بالمرة من هتك الذاكرة الصنهاجية في البلاد، وقفزا على الحقائق الجغرافية الثابتة. وتعود كلمة شنقيطي، الاسم الذي عرفت به موريتانيا في المشرق العربي خلال العصور الوسيطة، هي الأخرى إلى لغة آزير (اللغة المزيج بين الصنهاجية والسوننكية)، وتعني عيون الخيل، كما ينقل ابن الأمين عن سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم.

ويرسم ابن الأمين، في كتابه الوسيط، وهو أقدم مرجع موريتاني يهتم باستعراض جغرافية موريتانيا بشكل مفصل، في تذييله لكتابه بـ"الكلام على شنقيط وتخطيطها،" صورة تطغى فيها التسميات ذات الأصل الصنهاجي. فمن بين ما يناهز ثلاثمئة وسبعين موضعا وردت في هذا التذييل، يحمل نحو مئتين وثلاثين موضعا اسما أمازيغيا أو ذا جرس أمازيغي (أو آزيري؟) بيِّن. ويبدو الانتشار واسعا في مختلف مناطق موريتانيا من أقصى الجنوب في لعكل (تنديجمار، تغرريت، اندومري) وتيرس في أقصى الشمال (زوك، إكازرن، إنال)، وآدرار (تنوشَرْتْ، تومغاد، انتكمكت)، إلى الحوض في أقصى الشرق (تيبوشاتن، تيجطي، يجكني)، وآوكار (أغيدْريتْ، تنغارة، إبنقان)[44].

---

[42] حماه الله ولد السالم، أسباب غياب المسألة الأمازيغية عن موريتانيا https://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/a2acaafe-8b24-4f4b-b1af-fbfc63bfba0d

[43] ولد أحمد يورة، (1992). إخبار الأحبار بأخبار الآبار. تحقيق أحمد ولد الحسن. الدار البيضاء: مطبعة دار النجاح الجديدة.

[44] أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص. 422-475

ويعطي جزء الجغرافيا من موسوعة المختار ولد حامدن، الذي يشكل النافذة الأوسع على "الجغرافيا التاريخية" لموريتانيا، صورة مفصلة عن طغيان الطوبونيميا الصنهاجية على عموم التراب الموريتاني. فقد احتلت الأسماء الصنهاجية (أو ذات الجرس الصنهاجي أو الآزيري؟) الجزء الأعظم من الرحلة الطويلة لهذا المؤرخ الموسوعي الضليع بجغرافية موريتانيا وبكلام زْناغَـة التي جاب فيها أزيد من مليون كلمتر مربع في 120 صفحة. وتتخلل هذه الرحلةَ الماتعة والشاقة في نفس الوقت استطراداتٌ، تطول وتقصر، عن هذه الأماكن وما شهدت من وقائع وما حوت من مدافن، والأهم بالنسبة لنا هنا، كيف عرَّبها الشعراء الذين تغنوا بها في أشعارهم، ليبكوا على ما اندرس من أطلالها.

فعند مروره ببئر تنْشيكلْ، الواقع في منطقة إغيدي، يورد بيتين غرليين للشاعر يكوى الفاضلي عرَّب فيهما هذا البئر باسم "ذات اليم"، أي الواقعة على البحر؟:

فما درة حمراء تُـعرض في رق ولا الذهب الإبريز يُـنشر من حق

بأحسن من إخْناث بالأمس منظرا على جفر ذات اليم مغبرّة تَسقي

ومن خلال نظرة سريعة على مختلف المناطق ومقارنة بعضها مع الآخر، يمكننا أن نستنتج حضورا أكثر للطوبونيميا الصنهاجية في المناطق التي ما يزال كلام زناغَـة متحدثا فيها. ففي منطقة إغيدي مثلا التي أورد منها ولد حامدن نحو سبعين بئرا، جاءت نحو خمسين منها، أي ما يزيد على سبعين في المائة منها، بأسماء أمازيغية بينة.

ويتجلى هذا البذخ الطوبونيمي الخاص بالكبلة في مصنف آخر أقدم من جغرافيا بن حامدن، كُـتب خصيصا من أجل "تعريب أسماء البربري من الآبار" هو إخبار الأحبار في أخبار الآبار لامْحمَّدْ ولد احمد يورة. وقد اقتصر الكتاب على منطقة جغرافية هي إغيدي في الكبلة. لكنه قدم لها عرضا شاملا بذكر أكثر من ستين بئرا تحمل أسماء أمازيغية، وأعادها إلى جذورها الصافية مزيلا ما علق بها من تغيرات مورفولوجية أو صوتية، وساردا في الوقت ذاته، في عملية ربط ماتعة بين المكان والذاكرة السياسية والعلمية والأدبية، ما ارتبط بهذه الآبار من معارك ومدافن وأشعار. وقد شكل تحقيق جمال ولد الحسن الذي ضبط "مواقع الأماكن [المذكورة في الكتاب]

بالتقريب، عن طريق تحديد مسافتها من مركز حضري معروف اليوم" إضافة نوعية لهذا المصنف غير المسبوق في اهتمامه.

وتضمنت مقدمة ولد الحسن للكتاب، في سابقة غير معهودة في التقاليد البحثية الموريتانية الناطقة بالعربية، التي تنحو بمبالغة كبيرة نحو تمجيد وتأكيد الجذور العربية بوصفها التعبير الأكمل المنشود عن هوية البلاد وأهلها، أولَ تعاطف مكتوب يبديه مثقف موريتاني معاصرٌ، ولو بالتلميح، تجاه الإرث الصنهاجي في منطقة الكبلة، وفي عموم موريتانيا. ويعكس وجود العدد الكبير من أسماء الآبار الصنهاجية في هذه الرقعة الجغرافية الضيقة التي شكلت تاريخيا مجال تحرك أولاد ديمان، انغراسا طوبونيميا لا مثيل له في بقية مناطق موريتانيا. ولعل امتياز فئة الزوايا في هذه المنطقة بامتلاك الآبار وحفرها وتعهدها بالترميم والإصلاح مكَّن لكلام زناغَـة، وأبقاه اللغة الأكثر استخدما في هذا المجال.

وتدل قدرة هذا الشاعر والأديب الأشهر في إغيدي على ترجمة هذه الأسماء، ونفض ما علق بها من غبار الحسانية وإعادة صَـنْـهَـجَـتها بِحِـرفية ألسنية فذة، على مستوى عال من إتقان هذه اللغة يبدو أنه كان شائعا في منطقة الكبلة بدايات القرن الماضي. وقد كان هذا الشاعر قادرا على نظم قصائد خالصة بهذا اللسان، فضلا عن تطريز قصائده الفصيحة والحسانية وتطعيمها بكلمات صنهاجية. وهذا الإتقان لا يمكن فصله، كما أشرنا سابقا، عن روح التزاويثْ. تلك الروح التي ربما يكون المختار ولد حامدن (م. 1993) قد شكل، خاصة في جانبها المتعلق بحذق كلام زناغَـة، أوْجها الأخير قبل الخبوت لدى أولاد ديمان. ويعكس المعجم الثري لكلام زناغَـة الذي نشر باسم فرانسيس نيكولا خمسينيات القرن الماضي وأشار أكثر من باحث إلى أنه كان من جمع ولد حامدن معرفة الرجل بهذا اللسان وإتقانه له.

ويُـظهر مصنف آخر، تتجلى فيه التقاليد الهاجيوغرافية لزوايا المنطقة، هو نظم المدافن لمحنض باب ولد امين طغيان الطوبونيميا الصنهاجية في منطقة إغيدي. وتكاد تنحصر مدافنهم في الأماكن التي تحمل أسماء صنهاجية صرفة (تنيخلف، تنغوس، إنتمركاي، انجين، تنجمار، تنغوس، ترتلاس، تنياتيل، تنبلين، تنبرار، يكفئذ، اتويكيدمت، انبراج، اندصح، انتوطفين،

أكدرنيت، آشكركط، انيفرار، آمنيكير، إغكسجر، انتدبان، انتيزيت، تنتردل، أغورس، أودش آبليغ، تمغرت، تندوج، أغنجبرت، أغمجنجرت، اتويدرمي، تنوارلل، أفنغيل، تنيير، الشنكاط، أغمبايت، بقاس، تنضله، أغبسيت).

نحو وعي صنهاجي..؟

لا ينظر أبناء هذه القبائل الثلاث إلى أنفسهم ككيان متميز منفصل عن محيط الزوايا في منطقة الكبلة التي تضم عشرات الكيانات القبلية. ولا يُسجل التاريخ المكتوب ولا المتداول شفهيا أي مظهر من مظاهر الوحدة السياسية، ولا الثقافية الخاصة، بين هذه القبائل على أساس الحديث بكلامْ زْناغَـة. ولن يسهم التقطيع القبَـلي الذي وطدته الإدارة الاستعمارية ولا المحاصصة القبلية في الوظائف السامية والمناصب الانتخابية، التي أصبحت تحكم المشهد السياسي الموريتاني منذ بدء المسار الديمقراطي تسعينيات القرن المنصرم، إلا في النزوع نحو تأكيد الهوية الخاصة لكل قبيلة بشكل مستمر، في إطار سعي هذه القبائل للحصول على نصيب أوفر من الكعكة الوطنية.

ولا تظهر شجرات الأنساب، كذلك، أي تبادل ذي بال للزيجات بين هذه القبائل رغم التداخل الجغرافي الكثيف بين اثنتين منها على الأقل. ولأن هذه القبائل تنتمي ثلاثتها إلى طبقة الزوايا، فإن الحروب، التي يفترض عالم الأنثروبولوجيا البريطاني إيفانز بريتشارد أنها العلاقة الوحيدة التي يمكن أن تكون بين القبائل، ستظل خطابية يتبادل طرفاها تشكيلَ الصور النمطية اللاذعة عن بعضهما البعض.

وتؤكد تقاليد مروية لأولاد ديمان، تُمكن قراءتها ضمن المناكفات القبلية وبناء الصور آنفة الذكر، حالاتِ اندهاش متكررةٍ لدى منتمين إلى إدابلحسن من وجود متحدثين بهذه اللغة خارج نطاق قبيلتهم، مفترضين أن كلام زْناغَـة لغة خاصة بهم. وتؤكد هذه المحكيات انزياح هذا اللسان من الفضاء المشترك بين القبائل منذ أمد بعيد، وانحسارَ استخدامه واقتصاره على الفضاءات الحميمية كالأسرة والحي والقبيلة. وهو انزياح سي أكثر مع الهجرات المتسارعة من الريف إلى المدينة، وما حملت معها من تغيرات سوسيو-ثقافية

وإذا كان ولد الشيخ[45] قد لاحظ أن النظرة غير الواثقة التي يُنظر بها إلى هذا اللسان داخل المراكز الحضرية وطغيانَ صراعات أخرى (التيار العروبي ضد التيار الفرنكفوني، وما يعرف بالقضية العرقية) أكثرَ قدرة على الاستقطاب وأكثر استنزافا للنقاش العام يقوضان نشوء وعي هوياتي مبني على هذا اللسان وتراثه، فإنه يمكننا أن نجازف هذه الأيام ونتحدث عن اهتمام متصاعد بهذا اللسان وتراثه لدى مجموعات متزايدة من الشباب المنحدرين من القبائل التي ما تزال تتحدث كلام زناغَـة، ومن خارجها من القبائل ذات الأصول الصنهاجية على العموم. ولا يمكن الفصل بين الاهتمام الذي يبديه هؤلاء الشباب وبين النزوع المتزايد لدى فئات أخرى من المجتمع الموريتاني (الأرقاء السابقين/الحراطين ولِـمعَـلْمين/ الحِـرَفيين..) نحو التأكيد على هوياتها المستقلة والتشبث بخصوصياتها الثقافية والتاريخية، ورفض الذوبان داخل القوالب النمطية المعممة المتداولَـة عن هوية الجزء الناطق بالحسَّـانية من المجتمع الموريتاني وعن تاريخه وأصوله وانتماءاته. وقد ساهمت وسائل التواصل الاجتماعي، بما خلقت من فضاءات حرة للتداول والنقاش في أكثر القضايا تغييبا وتهميشا، وبما شكلت من جسور للتواصل مع الناشطين الثقافيين والسياسيين في الهيئات الأمازيغية لبلدان الشمال الإفريقي، في رعاية هذا الوعي الناشئ وربطه بتجاربَ أمازيغيةٍ ذات تقاليد عريقة وراسخةٍ بوصفها امتدادا طبيعيا له. كما سمحت وسائل التواصل الاجتماعي بنفض الغبار عن كثير من تراث الناطقين بهذا اللسان وأفسحت المجال أمام جيل من الشباب أظهروا مستوى عاليا من الاضطلاع بكلامْ زْناغَـة وقدرة فائقة على تدوين معجمها.

ورغم نجاح ما سنتجاسر على وصفه بالتيار الصنهاجي الناشئ في التأكيد على الاعتزاز بهذا اللسان وتراثه، فإنه ما يزال عاجزا حتى الآن عن الانتظام في إطار مؤسساتي موحد أو إنشاء كيان يسعى إلى النهوض بهذا التراث، ولم يستطع نقلَ التشبث بهذا اللسان من الفضاء الافتراضي إلى أرض الواقع. كما يعاني هذا "التيار" من انبتاتِ غالبية أفراده عن الواقع الاجتماعي والثقافي للكتلة الناطقة بهذا اللسان في الأرياف والقرى، ويُصنفه البعض تيارا طفوليا

[45] Ould Cheikh (2008), op. cit,.

مشاكسا، ويُـنظَر إلى بعض أفراده كباحثين عن الشهرة أو ذوي مطامح وتطلعات خاصة. ورغم وجود ناطقين ذوي مستوى عال من إتقان كلامْ زْناغَـة ضمن المدافعين عنه، فإن أغلبية من يتصدرون المشهد، حاملين لواء الذود عن الهوية الصنهاجية ومسلحين بأدوات النضال الثقافي، لا يتقنون هذه اللغة، بينما لا يرى الشبان، والكبار كذلك، الحاذقون لهذا اللسان، القادمون للتو من معاقله، في هويتهم هذه ما يستحق الفخر، وليست لدى أغلبهم أجندات في هذا الاتجاه، أو لا يمتلكون، ربما، الوعي السياسي والثقافي الضروري لحمل هذا المشعل والقيام بهذه المهمة التي تعترضها الكثير من العقبات النفسية والاجتماعية. ويمثل جسْر الهوة الحضارية التي تفصل بين الفئتين آنفتي الذكر تحديا حقيقا سيُـمكن، إن تمَّ، من كسر هذه العلاقة المزمنة الراسخة في الأذهان بين هذا اللسان وتراثه وبين الانغلاق على الذات المنهزمة الرافضة للإفصاح عن هويتها والحديث جهرا أمام الناس بلغتها.